



استوقفني حديثان من أحداث السيرة العطرة وجدت فيهما فوائد كثيرة وعبرًا جليلة، ولطالما سالت الله لي ولإخواني أنْ يوفقنا للعمل بما اشتملا عليه.. ولأنَّ الحَدِيثَينَ وردا في كتب السنة الصحيحة فلن أسردهما بطولهما، وإنما سأقف على محل الشاهدِ مِنْهُما.

الحدث الأول: حين جاء جبريل عليه السلام إلى النبي الأمين صلى الله عليه وسلم في غار حراء وضمه إلى صدره وأمره بالقراءة، عاد النبي صلى الله عليه وسلم بعدها إلى بيته مرتعداً يرتجف فؤاده، وهو يقول لخديجة رضي الله عنها - بعد أنْ قصَّ عليها الخبر - : «لقد خَشِيتُ على نفسي». فقلَّت له تلك الكلمات الحالات: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِنَكَ اللَّهُ أَبْدَا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَصِلُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ» (أي: تتفق على الضعيف، واليتم وذي العيال)، وتكتب المعدوم (أي تعاون الفقير وتتبرع بالمال لمن عدمه)، وتقْرِي الضَّيْفَ (أي تكرمه)، وتعينُ على نَوَائِبِ الْحَقِّ (ما ينزل بالإِنسان من حوادث ومصائب).»

الحدث الثاني: حين خرج أبو بكر مُهاجِراً نحو أرض الحبشة ليلحق بمن سبقه إليها من المسلمين، لقيه رجل من المشركين يقال له ابن الدَّغْنَةَ فقال: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي. قَالَ أَبْنُ الدَّغْنَةَ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ (أيْ مُجِيرٌ أَمْنَعُ من يؤذيك)، فَارْجِعْ فَأَعْيُدْ رَبَّكَ بِيَلَادِكَ. فَارْتَحَلَ أَبْنُ الدَّغْنَةَ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِيهِ بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرْيَشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَنْخَرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِيمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْفَقَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ أَبْنِ الدَّغْنَةِ، وَأَمْنُوا أَبَا بَكْرٍ... إلخ.

إذا تأملنا هذين الوصفين وجدنا العديد من الفوائد التربوية والنفسية والاجتماعية والخُلُقية التي ترتقي بالإِنسان إلى أقصى درجات الكمال البشري الممكن والمعبر به في وصف أبي بكر بقوله: «لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ»، كما تمنعه تلك الفوائد من السقوط الاجتماعي وال النفسي المعبر عنه في كلام خديجة - رضي الله عنها - بالخزي، والخزي كما عرفه العلماء هو شُعور

مؤلم يسبّبه الإحساس بالذنب أو الإحراج أو عدم الأهميّة أو العار..

وَسَأَكْتُفِي بِالإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ الْفَوَائِدِ الْخُلُقِيَّةِ، مُرْجِحًا الْحَدِيثَ عَنِ الْفَوَائِدِ التَّرَبُوِيَّةِ وَالنُّفُسِيَّةِ لِمَنْاسِبَةِ أُخْرَى، فَأَقُولُ مُسْتَعِيًّا
بِاللَّهِ:

- الجاذبية الأرضية هي القوّة التي ينجذب بها جسم ما نحو مركز الأرض دون اتصال بينهما، وعكسها انعدام الوزن، فهو الحالة التي يخفّ بها الإحساس بالوزن نظراً لانعدام الجاذبية. ولا تقتصر الجاذبية وانعدام الوزن على الأشياء المحسوسة والملموسة فقط، فهناك الجاذبية الأخلاقية والتي تعني القوّة التي ينجذب بها شخص ما أو جماعة نحو سلوك حسن بإرادة حرة دون تأثير مادي من صاحب السلوك، كما أنّ انعدام الوزن في عالم الأخلاق يعني انعدام تأثير الشخص في الوسط المحيط نظراً لانعدام جاذبيته.

وبالتأمل في الحديثين المذكورين نجد أنّهما يؤسسان لقانون الجاذبية الأخلاقية، ويؤكدان أنّ لهذه الجاذبية معالم ومتارات ظاهرة واضحة كـ **المعالم الأرض والبناء**، وعلى كل من أراد أن يكون جذاباً أن يقصد هذه المعالم ويسعى إليها، ذكر منها الثلاثة التالية:

المعلم الأول: السيرة الحسنة:

من الواضح أنّ الأوّاصاف التي وصف بها الرجل أبا بكر هي عين الأوّاصاف التي وصفت بها السيدة خديجة رسول الله، وأنّ هناك تطابقاً تاماً بين الوصفين، فعلى أي شيء يدلّ هذا التوافق؟
إنّه من جهة يدل على ائتلاف الروحين - روح الصادق والصديق -، كما يدل على عظيم فضل أبي بكر واتصافه بالصفات البالغة في أنواع الكمال؛ ومن جهة أخرى يدل على ضرورة توافر هذه الأوّاصاف كلها أو جلها في حياة القدّوّات والدعاة ومنّ أراد قيادة الناس، بل وفي حياة أفراد المجتمع كافة من جهة أخرى، كما أنّك إذا أمعنت النظر في هذه الأوّاصاف وجدتها تشمل أصول مكارم الأخلاق؛ لأنّ الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل، وذلك كله مجموع في الوصفين، مما جعل النبي صلّى الله عليه وسلم وصاحبـه قبل البعثة عَمِين في محظـهما الاجتماعيـ.

وقد عاب الله على أهل قريش حين لم يستجيبوا لدعوة رسوله، وتساءل سبحانه - تَعَجَّبًا وَاسْتَنْكَارًا - : لماذا لم يستجيبوا لـ **محمد**؟! هل لأنّهم لا يعرفونه؟! لذا فهم في حاجة إلى وقت حتى يسألوا عن أصله وفصله وعن خلقه وسلوكه؟! لا، ليس الأمر كذلك، فهذا احتمال مستبعد تماماً؛ لأنّهم يعرفونه معرفة تامة - صغيرـهم وكـبـيرـهم -، يعرفـون شخصـه ويعرفـون نسبـه، ويعرفـون - أكثر من أي أحد - صفاتـه، يـعرفـون منهـ كل خـلـقـ جـمـيلـ، ويـعرفـون صـدـقـه وأـمـانـتـه حتى كانوا يـسمـونـه قبل الـبعثـة **الأـمـين**، فـلـمـ لـا يـصـدقـونـه حين جاءـهمـ بالـحـقـ العـظـيمـ وـالـصـدـقـ المـبـيـنـ؟!.. لذلك استنكر الله عليهم هذا السلوك العجيب في قوله تعالى: **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** [المؤمنون: 69].

فالسيرة الطيبة والأفعال الحميدة والأخلاق الزاكية تجعل صاحبـها قدوة طيبة وأسوة حسنة لغيرـه، ويـكونـ بها كالكتاب المفتوح يقرأـ فيهـ الناسـ المعـانـيـ الجـمـيلـةـ وـالـنـبـيـلـةـ فـيـقـبـلـونـ عـلـيـهـاـ وـيـنـجـذـبـونـ إـلـيـهـاـ.. وـمـعـلـومـ أنـ التـأـثـرـ بـالـأـفـعـالـ وـالـسـلـوكـ أـبـلـغـ وأـكـثـرـ مـنـ التـأـثـرـ بـالـكـلـامـ فـقـطـ، وـلـمـ يـنـسـ الحـكـماءـ أـنـ يـضـمـنـواـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ فـيـ أـقـوـالـهـمـ، فـقـالـواـ: **عـمـلـ رـجـلـ فـيـ أـلـفـ رـجـلـ خـيـرـ مـنـ كـلـامـ أـلـفـ رـجـلـ فـيـ رـجـلـ**.

وفي التنزيل الحميد موقف يختصر لنا المسافة ويعطينا المعنى في ألطاف إشارة، حين قال **الفتىـانـ لـيـوـسـفـ** - عليه السلام - : **نـبـئـنـاـ بـتـأـوـيـلـهـ إـنـاـ نـرـاـكـ مـنـ الـمـحـسـنـيـنـ**، وكانـ هذاـ الـطـلـبـ مـنـهـماـ بـعـدـ أـنـ أـعـجـبـاـ بـصـلـاحـهـ وـسـلـوكـهـ معـ أـهـلـ السـجـنـ وـحـسـنـ

معاملته لهم. ومنْ وجوه الإحسان التي كان يمارسها - على ما يذكر الإمام القرطبي - : «أَنَّهُ كَانَ يَعُودُ الْمَرْضَى وَيُدَأْوِيهِمْ، فَكَانَ إِذَا مَرَضَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ السِّجْنِ قَامَ بِهِ، وَإِذَا ضَاقَ وَسَعَ لَهُ، وَإِذَا احْتَاجَ جَمَعَ لَهُ»، ويضيف ابن كثير «وَكَانَ يُوسُفُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدِ اسْتَهَرَ فِي السِّجْنِ بِالْجُودِ وَالْأَمَانَةِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَحُسْنِ السَّمْتِ وَكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَمَعْرِفَةِ التَّعْبِيرِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ السِّجْنِ وَعِيَادَةِ مَرْضَاهُمْ وَالْأَقِيَامِ بِحُقُوقِهِمْ. وَلَمَّا دَخَلَ هَذَانِ الْفَتَنَانِ إِلَى السِّجْنِ، تَالَّفَ بِهِ وَأَحْبَاهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَقَالَا لَهُ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَحْبَبْنَاكَ حُبًّا زَائِدًا».

المعلم الثاني: الإيجابية والتحرك لمواجهة المشكلات اليومية الحياتية:

منْ أهم الأمور التي تُعِينُ على جذب الآخرين نحو شخصٍ ما: أنْ يكون عملياً، يَقِلُّ الكلام لديه، في حين تُكثُرُ الأساليب العملية التي تعالج المشكلات المعاصرة المحيطة به على نحو فعال وحاسم، يظهر ذلك بوضوح منْ الوصْفَيْن الم المشار إليهما، فخدِيجة - رضي الله عنها - لَمْ تَقُلْ للنبي: وماذا تخشى وقد أَلْقَيْتُ فيهم خُطْبَةً بِلِيْغَةً جَزَلَةً. والذِي وصف أبا بكر لم يقل له: لماذا يخرجك قومك وأنت من أشعر (أنسب أو أعرف العرب بشعرها وأنسابها) العرب وأفصحها لساناً؟ إنما ذَكَرَ صِفَاتٍ عملية واقعية. ولا يخفى أنَّ ديننا هو دين العمل وأنَّ أكثر الأمور اقتراناً وتساقفاً في القرآن الكريم: الإيمان والعمل الصالح، وكان مِمَّا نهت عنه الشريعة وكرهته وحذرت مِنْه: «القِيلُ وَالْقَالُ»، أي فضول القَوْلِ والاشتغال بما لا يعني مِنْ أقوابِ الناس.

ولا ريب في أَنَّنا سنرتكب خطأً فادحاً حين نظن أَنَّنا نستطيع جذب الآخرين إلى أَخْلَاقِنَا بمجرد أَنْ نتحدث إِلَيْهم عَبْرِ مكبرات الصوت ونحن قابعون في أبراجنا العاجية، دون أَنْ نوجد حُلُولاً - أو نشارك في إِيجاد حُلُول - لمشكلاتهم اليومية الحياتية المختلفة - مثل الفقر والجريمة والأُمَمَّةِ والمرض والبطالة -، وهذا يقتضي الحرص على المخالطة التي لا بُدُّ منها، بل إنَّ هذا الواجب أصبح أَشَدَّ تَحْتَمًا في زماننا مِنْ أَيِّ زمان مضى بعد أَنْ اتسع العمran وضاقت الصدور ونَمَّتْ مساحة الشخصي والذاتي على حساب المجتمعي والعام، فخدمة الإسلام لا تكون مِنْ خالل مدحِيهِ ولا مِنْ خالل الخطاب الرنانة حول إنجازاته، وإنما مِنْ خالل الارتقاء بالواقع وتحسين أوضاع أفراد المجتمع..

وقد عاب القرآن الكريم في بداية الدعوة على أهل مكة أَنَّهُمْ كانوا لا يهتمون بما يمكن أَنْ تُسمِّيه بـ مصطلح العصر المُشترَك الإنساني، فهاجمهم في عقر دارهم في قوله تعالى: «كَلَّا. بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتَيْمَ. وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِنِينَ»، فهم لا يكرمون اليتيم الصغير الذي فقد أباء واحتاج إلى مَنْ يُجْبِرُ خاطره ويُحْسِنُ إليه، كما أَنَّهم لا يتواصون على إطعام المحاوِيْج من المساكين والفقراء؛ ما يوحِي بضرورة توجيه الأنظار إلى الواجب الاجتماعي وإلى العمل العام.

المعلم الثالث: التصور الصحيح لعلاقة الإنسان بالإنسان:

نَحْنُ لا نعلم على وجه التحديد مَنْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَنالُونَ هَذِهِ الْأَلْوَانَ مِنْ الْبَرِّ وَالْإِحْسَانِ، حيث لم يُشَرِّ أَيُّ مِنَ النَّصَيْنِ مِنْ قريب أو بعيد إِلَيْهم، ولم يتكلّف أحد من الشراح والمفسرين تعبيئهم أو تحديد أسماء بعضهم، فليس في ذلك فائدة تُذَكَّر، والشيء المؤكَد أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ يعيشون مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبِهِ فِي نَفْسِ الْحِيزِ الْمَكَانِيِّ، وقد حرص النبي وَصَاحِبِهِ كُلَّ الحرص على إِحسان المعاملة معهم وَمُشَارِكتِهِمْ شعورهم، وهذا يعني أَنَّ مستقبل البشرية سيظل مَرْهُوناً بأُمَّرِيْنِ أَسَاسِيْنِ: حُسْنُ عَلَاقَتِهَا بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَحُسْنُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ أَيَّاً كَانَتِ الْعَقَائِدُ وَالْتَّوْجِهَاتُ.

فالله جَلَّ وَعَلَا بِقَدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ لَمْ يَخْلُقْ شَخْصَيْنِ - مِنْذِ نَشَأَتِ الْحَيَاةِ وَإِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةِ - مِتَّشَابِهِيْنَ فِي الشَّكْلِ وَالْمَعْنَى أوَّلَمْظَهِرِ وَالْجَوْهِرِ، بل حتَّى في أَطْرَافِ الأَصَابِعِ الَّتِي هِي مِنْ عَظِيمِ قدرَتِهِ، يُشَيرُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: «بَلِّي قَادِرِيْنَ عَلَى أَنْ نُسَوَّيَّ بِنَائِنَهُ»، وَمِنْ وَجْوهِ التَّفَسِيرِ فِيهَا: نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى تَسْوِيَةِ تَلْكَ الخطوطِ الْدِقِيقَةِ فِي الأَصَابِعِ وَالَّتِي تَخْتَلِفُ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَإِنْسَانٍ اخْتِلَافُ الْوِجْهَاتِ وَالْأَصْوَاتِ وَاللَّهَجَاتِ، مِمَّا يَجْعَلُ إِنْسَانَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ شَخْصَيْهِ مُسْتَقْلَةً تَتَوَلَّ عَنْدِ اجْتِمَاعِهَا

واختلاطها بغيرها ألوانٌ من الاختلاف يستحيل القضاء عليها قضاءً تاماً، والمطلوب أنْ يتجاوز بنو البشر – ولو في المحيط الجغرافي الواحد على الأقل – هذه الاختلافات حتى يتحقق المقصود من الحياة، وهو العمارة والعبادة. ومنْ عجيب ما استنبطه العلماء من الوصفين المشار إليهما: أنَّ مَنْ كانت فيه منفعة متعددة لا يُمْكِن مِنْ الانتقال عن البلد الذي هو فيه إلى غيره بغير ضرورة راجحة. وقد صدقوا، فَهُؤُلَاءُ للناس كالجبال الرواسي للأرض.

اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ إِيمَانًا فِي حُسْنِ خُلُقٍ، وصَلَاحًا يَتَبَعُهُ فَلَاح.. آمِنٌ.

موقع الشبكة الإسلامية

المصادر: